معاشر المسلمين، لم تعرف البشريةُ ديناً ولا حضارةً عُنيت بالمرأة أجملَ عناية وأتمَّ رعايةٍ وأكملَ اهتمام كالإسلام. تحدَّث عن المرأة، وأكّد على مكانتها وعِظم منزلتها، جعلها مرفوعةَ الرأس، عاليةَ المكانة، مرموقةَ القدْر، لها في الإسلام اعتبارٌ سامٍ ومقامٌ عالي، تتمتّع بشخصيةٍ محترمة وحقوقٍ مقرّرة وواجبات معتبرة. نظر إليها على أنها شقيقةُ الرجل، خُلِقا من أصل واحد، ليسعدَ كلٌّ بالآخر ويأنس به في هذه الحياة، في محيط خيرٍ وصلاح وسعادة، قال ﷺ: ((إنما النساء شقائق الرجال)).

جعل الإسلام المرأةُ كالرجل في المطالبة بالتكاليف الشرعية، وفيما يترتّب عليها من جزاءاتٍ وعقوبات: (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً)، هي كالرجل في حمل الأمانة في مجالات الشؤون كلها، إلا ما اقتضت الضرورةُ البشرية و طبيعتها الخَلْقية التفريقَ فيه، وهذا هو مقتضى مبدأ التكريم في الإسلام لبني الإنسان: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى ءادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُمْ مّنَ ٱلطَّيّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً).

إخوةَ الإسلام، أشاد الإسلام بفضل المرأة ورفع شأنَها، وعدَّها نعمةً عظيمةً وهِبةً كريمة، يجب مراعاتها وإكرامُها وإعزازها والمحافظة عليها، يقول المولى جل وعلا: (لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء، يَهَبُ لِمَن يَشَاء إِنَـٰثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءَ ٱلذُّكُورَ)، لاحظوا كيف وصفها، وصفها وعدَّها هبة إلهية، وفي مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺقال: ((من كان له أنثى

فلم يئـدها ولم يُهنها ولم يـؤثر ولـده عليها أدخله الله الجنة).

نعم إخوة الإيمـان، نتكلم اليـوم عن المـرأة، وإن كـان هذا الموضوع متشعب الأفكار والعناصر، وإن كان كـثر الكلام فيه في الآونة الأخـيرة، إلا أننا يجب أن نـذكر الناس بين الفينة والأخرى، لأن الذكرى تنفع المؤمنين، وخاصـةً ممن نسـوا، أو أنسـاهم الشـيطان لعنه اللـه، أنسـاهم تعـاليم دينهم، ووصـايا نـبيهم الكـريم ﷺ في نساءهم.

إننا عندما نطلق لفظ المرأة، كثيرٌ منا ينطلق ذهنه إلى أبعدَ ما يكون من التفسير والاعتبار، الذي يكـون بعضه صـحيحاً صـائباً، والبعض الآخر مغلوطـاً خاطئـاً، هـذه المـــرأة، من هي ؟؟؟؟ إنها أمك أو أختك أو بنتك أو زوجتك، إذن، نحن محاطون بمربـعٍ قوامه الأم والأخت والبنت والزوجة، مربعٌ كله حنانٌ وعطـفٌ ورقـةٌ وأدب، كل هذا يستوجب منا كمسـلمين أن نـوفي هـذا المربع الرقيق حقه من العناية والرعاية والتعاهد بالإحســان والتكريم.

إخـوة الإسـلام: وبضـدها تتمـيز الأشـياء، لا بد لنا عند التطرق لهذا الموضوع الحساس الذي اتخذه كثـيرٌ من المبغضين والمتآمرين، اتخذوه مطيةً للإساءة للإسـلام وأهله، مستشهدين بشـواهد سـيئةً لا تمت لهـذا الـدين الـرحيم الرقيق بصـلة، لا بد لنا عند التكلم في هـذا الموضوع من الوقوف على نافذة التـاريخ، لننظر كيف كانت المرأة تعيش، وأيَ منزلة ارتقت، وما كان دورُها في الحياة، قبل أن تشرق عليها شـمس رسـالة محمد ﷺالتي نزل بها الروح الأمين من عند رب العالمين .

وإننا إذ نتحـدث اليـوم عن حـال المـرأة قبل الإسـلام، يكفينا أن نتحـدث عن حالها عند العـرب وحـدهم دون سواهم من الأمم والملل التي كـانت وما يـزال بعضـها قائماً إلى يومنا هذا.

كـانت المـرأة في الجاهليـة، تُعَد من سـقْط المتـاع لا يقام لها وزن، حتى بلغ من شدة بغضـهم لها آنـذاك أنَّ أحـــدهم كـــان حينما تولد له البنت، يســـتاء منها أشد استياء، بل كان يكرهها ولا يستطيع مقابلة الرجـال من الخجل الـذي يشـعر بـه، ثم يبقى بين أمـرين، إما أن يـــترك هـــذه البنت مهانـــة، ويصـــبر هو على كراهيتها وتنقيص الناس له بسـببها، أو أن يقتلها شر قِتلـة، بـأن يـدفنها وهي حيـة، ويتركها تحت الـتراب حـتى تمـوت، وقد ذكر الله عز وجل ذلك عنهم فقـــــال: (وإذا بُشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسـوداً وهو كظيم ، يتـوارى من القوم من سوء ما بُشِّـر به أيُمسـكه على هُـوْن أم يدسّه في التراب ألا ساء ما يحكمون)، وأخبر سبحانه أنه سيُنْصف هــذه المظلومة ممن ظلمها وقتلها بغـــير حـق، فقـال تعـالى: (وإذا المـوءدة سـئلت، بـأي ذنب قتلت).

وكـــانوا في الجاهلية إذا لم يقتلـــوا البنت في صـــغرها أهانوها في كبرهـــا، فكـــانوا لا يورثونها من قريبها إذا مات، بل كـانوا يعـدونها من جملة المتـاع الـذي يُـوْرَث عن الميت، بل كـــان الرجل إذا مـــات وله أولاد من غيرها، كان لأكبر أولاده الحق في زوجة أبيه، فإن شاء تزوجها، وإن شاء باعها أو استخدمها عبدةً عنـده، روى الإمام البخـاري وغـيره عن ابن عبـاس قـال: كـانوا إذا

مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضــهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوهـا، وإن شـاءوا لم يزوجوهـا، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت: (يا أيها الذين آمنــوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها).

كان الرجل في الجاهلية يتزوج العدد الكثير من النساء دون حصـرٍ بعـدد، وكـان يسـيء عشـرتهن، فلما جـاء الإسلام حرَّم الجمع بين أكثرَ من أربع نسـاء، واشـترط لجــواز ذلك تحقق العــدل بينهن في الحقــوق الزوجية قال تعالى: (فانكحوا ما طـاب لكم من النسـاء مثـنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعـدلوا فواحـدة أو ما ملكت أيمانكم).

نعم أيها الإخوة والأحبة، لقد جاء الإسلام والمــرأة على هذا الحال السـيء، فأنقـذها مما كـانت فيه من مهانـةٍ وذل، وكرَّمها وضمن لها حقوقهـا، وجعلها متسـاويةً مع الرجل في كثــير من الواجبــات الدينيــة، وفي تــرك المحرمــات، وفي الثــوابِ والعقــاب، وعلى ذلك قــال تعالى: (من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنـثى وهو مـؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون)، وقـال تعـالى: (إن المسـلمين والمسـلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتـات والصـادقين والصـــادقات والصـــابرين والصـــابرات والخاشـــعين والخاشـعات والمتصـدقين والمتصـدقات والصـائمين والصـــائمات والحـــافظين فـــروجهم والحافظـــات والـذاكرين الله كثـيرا والـذاكرات أعد الله لهم مغفـرة وأجرا عظيما)، لاحظـوا كيف جمع الله تعـالى الـذكور

والإناث في الفضائل وحميد الصفات، كذلك جمع بينهم في بيان الثواب وحسن الجزاء.

جاء الإسلام فـدعيت المـرأة إلى الإيمـان به كما دعي الرجل، وجاهدت المرأة في الإسلام كما جاهد الرجـل، فكرَّمها الإسلام ونبي الإسلام أيَّما تكريم، حتى إن الله تعـالى ذكر في كتابه الكـريم نسـاءً مؤمنـات ، تعـدل الواحدة منهن ملايين الرجال، فضرب لهن مثلاً بـامرأة فرعون: (إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنـدَكَ بَيْتـاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَـــوْنَ وَعَمَلِـــهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَـــوْمِ الظَّـٰلِمِينَ).

كـذلك فقد ذكر الله سـبحانه السـيدة مـريم َأم عيسى عليه السـلام ، وذكر أنها صِــدِّيقة، ولم يــذكر الله بعد الأنبياء اسم صـديقٍ واحد في القـرآن فلم يُـذكر مقـام الصِّـدِّيقِيَّة في القـرآن إلا للسـيدة مـريم، فقـال: (مَّا الْمَسِـيحُ ابْنُ مَـرْيَمَ إِلاَّ رَسُـولٌ قَـدْ خَلَتْ مِن قَبْلِـهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ).

بل إن القـــرآن الكـــريم لما ذكر قصص الرجـــال في القـرآن وخاصـةً قصص الملـوك، كـان أكـثرُ الملـوك المــذكورين من الرجــال في القــرآن ممن ضل وكفر وخاب سعيه، ولكنه ذكر ملكةً واحـدة كـانت أفضل من ألوف الملـوك والرجـال الـذين كفـروا باللـه، تلكم هي بلقيسُ ملكة سـبأ، الــتي آمنت باللــه، وجنَّبت بحكمتها وعقلها، جنبت قومها الهلاك والكفر.

كما أن الإسلام يذكر للنساء في صدر الإســلام مواقف رائعة ومواقف مدهشــة، فكما صــبر المســلمون على

العـذاب من الرجـال ، صـبرت المسـلمات من النسـاء ففاطمة بنت الخطـــاب تســـلم قبل أخيها عمـــر، ولما عـرف عمر بـذلك ضـربها فتقـول في وجهه حين رأت الدم يسيل منها: نعم، يا ابن الخطاب أسـلمت، فافعل ما بدا لك. فيصعق عمر من إجابتها، ويقول لها: جيئيني بالكتاب الذي تقرؤون منه، فتأتيه به، فلما قرأه، قـال: "دلوني على محمد ﷺكي أسلم".

وإن أم شــــريك آمنت وعـــذبت وجـــوعت وعطشت وألقيت في الحــرَّ، وهي في شــبه إغمــاء من الجــوع والعطش، ولما حـــاولوا ردها إلي الكفـــر، قـــالت : "اقتلـوني، ولن أعـود للكفر أبـداً"، فلما عـرف قومها الحقيقة عرفـــــوا أنها على الحق وأنهم على الباطل ، فكـوا وثاقها وحبالها وقـالوا لهـا:فلننطلق إلى رسـول الله ﷺلنعلن إسلامنا.

ولا ننسى الصحابية الجليلة نسيبةَ الأنصارية التي كانت مع النـبي ﷺ تـدافع عنه في أُحد حين انهـزم كثـير من الرجـال وابتعـدوا عنه حـتى قـال عنها ﷺ: ((ما التفت يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل عني)).

هكذا كانت المرأة المسلمة وهكذا كان تكريم الإسـلام لهـا. يمشي أمـير المؤمـنين عمر فتسـتوقفه المـرأة فيقف لها، وتقول له: "يا عمر كنت تـدعى عمـيرًا ، ثم قيل لك: عمر، ثم قيل لك: أمير المؤمـنين ، فـاتق الله يا عمر فإنه من أيقن بالموت خاف الفـوت، ومن أيقن بالحسـاب خـاف العـذاب". وهو واقف يسـمع لكلامها فقيل له: يا أمير المؤمنين .. رجال .. على هذه العجوز

فقال: (والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره ما تحركت من مكاني، أتدرون من هذه العجوز ؟، هي خولة بنت ثعلبة سمع الله قولها من فوق سبع سموات. أيسمع رب العالمين قولها ، ولا يسمعه عمر) الله أكبر هذا كله دليل على صدق هؤلاء النساء، وعلى عظم مكانة المرأة في الإسلام، فالله لم يعط الفضل للرجال فقط ، ولم يعط الشرف للرجال فقط ، ولم يعط العزة والكرامة للرجال فقط، إنما أعطاها لكل من آمن وصدق إيمانه وثبت على الحق ثبوتاً صادقًا.

لقد فضل الله الرجل على المراة في مقامات متعددة، فقال: (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)، وقال أيضاً: (و للرجال عليهن درجة)، وإن هذا التفضيل يفهم أحياناً فهماً خاطئاً، فإن الله تعالى فضلنا معاشر الرجال على النساء في بعض المواطن وليس كلها، وما ذاك إلا لأسباب تقتضي التفضيل عليها، كما في الميراث والشهادة والدية والقوامة والطلاق، لأن عند الرجل من الاستعداد الخَلْقي ما ليس عند المراة وعليه من المسؤولية في الحياة ما ليس على المرأة.

وفي المقابل، فإن الله تعالى جعل للمرأة حقاً في الميراث فقال سبحانه: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا﴾ ، جعل لها التملك والتصدق والإعتاق كما للرجل قال تعالى: ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ ، جعل لها الحق في

اختيار الزوج فلا تُزَوَّج دون رضاها، صانها الله بالإسلام من التبذل، وكف عنها الأيدي الآثمـة، والأعين الخائنـة، التي تريد الاعتـداء على عفافهـا، والتمتع بها على غـير الوجه الشرعي.

هكـذا عاشت المـرأة في ظل الإسـلام وكرامتـه، أُمَّاً وزوجة وقريبة وأختا في الـــرحم وأختـــاً في الإيمـــان والـدين، تـؤدي وظيفتها في الحيـاة ربة بيت وأسـرة، وتزاول خارج الـبيت ما يليق بها من الأعمـال إذا دعت الحاجة إلى ذلــك، مع الاحتشـــام والاحتفــاظ بكرامتها والالـــتزام الكامل بالحجـــاب الضـــافي على جســـمها ووجهها، وتحت رقابة وليها.

ختامـاً: أوصى بها نـبي الاسـلام عليه الصـلاة والسـلام وصيةً خاصة حين قـال في حجة الـوداع: ((واتقـوا الله في النساء فإنهن عندكم عوان))، أي أسـيرات، كـذلك قال: (لا يكرمهن إلا كريم، ولا يضربهن إلا لئيم)